الكتب

احيـــاء النحو

تأليف الأستاذ ابراهيم مصطفى

خير ماتقدم به هذا الكتاب القيم إلى القراء أن ننشر هذه المقدمة التي صدره بها مؤلفه الفاضل فقد حدد فيها الموضوع ورسم الطريق وبين الغاية . والرسالة بعد ذلك كلمة فيه

هذا بحث من النحو ، عكفت عليه سبع سنين وأقدمه إليك في صفحات . سبع سنين من أوسط أيام العمر وأحراها بالعمل ، صدقت فيها الاعتكاف إلى النحو ، وإلى ما يتصل بمباحثه ، وأضعت له من حق الصديق والأهل والولد والنفس جميعاً .

كان سبيل النحو موحشا شاقا ، وكان الإيغال فيه ينقض قواي نقضا ، ويزيدني من الناس بعدا ، ومن التقلب في هذه الدنيا حرمانا . ولكن أملا كان يزجيني ويحدو بي في هذه السبيل الموحشة ؛ أطمع أن أغير منهج البحث النحوي للغة العربية ، وأن أرفع عن المتعلمين إصر هذا النحو ، وأبدلهم منه أصولا سهلة يسيرة ، تقربهم من العربية ، وتهديهم إلى حفظ من الفقه بأساليبها .

كانت بارقات الأمل - خادعة وصادقة - تدفعني في سبيلي ، غير راحة ولا وانية . فليكن ما أنفق من هذا العمر ذخراً في أعمار الدارسين من بعد ، ولتكن شيخوخة هذا الشيخ فدى للعربية ؛ أن تقرب من طالبيها ، ويمهد السبل لمتعلميها .

اتصلت بدراسة النحو في كل معاهده التي يدرس فيها بمصر ، وكان اتصالا طويلا وثيقا ؛ ورأيت عارضة واحدة ، لا يكاد يختص بها معهد دون معهد ، ولا تمتاز بها دراسة عن دراسة ، وهي التبرم بالنحو ، والضجر بقواعده ، وضيق الصدر بتحصيله ؛ على أن ذلك من داء النحو قديما ، ولأجله ألف « التسهيل » و « التوضيح » ، و « التقريب » ، واصطنع النظم لحفظ ضوابطه ، وتقييد شوارده .

والنحو مع هذا لا يعيا بك عند المشكلة ، القول الفاصل ، والحكم الفاصل . قد يهدي في سهل القول ، من رفع فاعل ونصب مفعول . فإذا عرض أسلوب جديد ، أو موضع دقيق ، لم يسعفك النحو بالقول الفصل ، واختلاف الأقوال ، واضطراب الآراء ، وكثرة الجدل التي لا تنتهي إلى فيصل ولا حكم ، كل ذلك قد أفسد النحو أو كاد ، فلم يكن الميزان الصالح لتقدير الكلام ، وتمييز صحيح القول من فاسده .

وإذا جئنا إلى مدارس الناشئين ، كانت المشكلة في تعليمهم النحو أشد وأكد ؛ فهو على ما تعلم من بعد تناوله ، وصعوبة مباحثه ، قد جعل المفتاح إلى تعلم العربية ، وكتب على الناشئ أن يأخذ بنصيبه منه ، منذ الخطوة الأولى في التعليم الابتدائي والثانوي ، واختير له جملة من القواعد ، قدر أنها تفي بما يحتاج إليه لإصلاح الكلام وتقويم اللسان ، ثم كانت خصومة هادئة قاسية بين طبيعة التلميذ ، وبين هذا المنهاج والقائمين عليه . أما التلميذ فقد بذل الجهد وأعيا ولم يبلغ من تعلم العربية أربا . وأما أصحاب المنهج . فقد رأوا أن يزيدوا في منهجهم ، ويكلوا للتلميذ حفظه من القواعد ، فلا سبيل له إلى العربية غير هذا النحو ؛ فزادوا في هوامش كتبهم ما يكمل القواعد ويتمم الشروط — ثم تسللت هذه الزيادات إلى جوف الكتاب فضخم ، وزاد المنهاج المفروض - ولكن طبيعة التلميذ الصادقة في إباء هذه القواعد ، والتململ بحفظها ، لم تخف شهادتها ، ولم يستطع جحدها ، فكانت ثورة على المنهاج وأصحابه ، وخفف منه ، وانتقص من مسائله ، والداء لم يبرأ ، والعوارض لم تغير ، وتكررت الشكوى ، وعادوا على المنهاج بالنقص ، حتى كان المقرر قواعد من النحو مختلفة ، كأنما هي نماذج يراد بها عرض نوع من مسائله

قد كان في هذا ، الشهادة الصريحة بفشل هذا النحو أن يكون السبيل إلى تعلم العربية ، والمفتاح لبابها .

ولقد بذل في تدوين النحو جهود مجيدة ، واصطنعت أصول التعليم اصطناعا بارعا ، ليكون قريبا واضحا ؛ على أنه لم يتجه أحد إلى القواعد نفسها ، وإلى طريقة وضعها ، فيسأل : ألا يمكن أن تكون تلك الصعوبة من ناحية وضع النحو وتدوين قواعده ، وأن يكون الدواء في تبديل منهج البحث النحوي للغة العربية ؟

هذا السؤال هو الذي شغلني سنين طويلا

ولقد تميز عندي نوعان من القواعد : نوع لا تجد في تعليمه عسرا ، ولا في التزامه عناء ، ولا ترى خلاف النحاة فيه كبيرا ، وذلك كالعدد ورعاية أحكامه في مثل : قام رجلان ، والرجلان قالا . وقال

رجال والرجال قالوا . فمع دقة الحكم فى رعاية العدد ، واختلافه تبعا لموضع الاسم والفعل من الجملة ، لا تجد العناء فى تصوره ، ولا المزلة فى استعماله

ونوع آخر لا يسهل درسه ولا يؤمن الزلل فيه ، وقد يكثر عنده خلاف النحاة ، ويشتد جدلهم ، كرفع الاسم أو نصبه فى مواضع من الكلام

ثم رأيت علامات العدد تصور جزءا من المعنى يحسه المتكلم حين يتكلم ، ويدركه السامع حين يسمع . أما علامات الإعراب ، فقل أن ترى لاختلافها أثرا فى تصوير المعنى ، وقل أن يشعرنا النحاة بفرق بين أن تنصب أو ترفع ؛ ولو أنه تبع هذا التبديل فى الاعراب تبديل فى المعنى ، لكان ذلك هو الحكم بين النحاة فيما اختلفوا فيه ، ولكان هو الهادى للمتكلم أن يتبع فى كلامه وجها من الاعراب

فلو أن حركات الاعراب كانت دوال على شىء فى الكلام ، وكان لها أثر فى تصوير المعنى ، يحسه المتكلم ويدرك ما فيه من الاشارة ومن وجه الدلالة ، لما كان الاعراب موضع هذا الخلاف بين النحاة ولا كان تعلمه بهذه المكانة من الصعوبة ، وزواله بتلك المنزلة من السرعة

ألهذه العلامات الاعرابية معان تشير إليها فى القول ؟ أتصور شيئا مما فى نفس المتكلم ، وتؤدى به إلى ذهن السامع ؟ وما هى هذه المعانى ؟؟

والعربية ـ لغة القصد والايجاز ـ أتلتزم علامات الاعراب على غير فائدة فى المعنى ، ولا أثر فى تصويره ؟

لقد أطلت تتبع الكلام ، أبحث عن معانى لهذه العلامات الاعرابية ، ولقد هدانى الله ـ وله خالص الاخبات والشكر ـ إلى شىء أراه قريبا واضحا ، وأبادر إليك الآن بتلخيصه :

(١) إن الرفع علم الاسناد . ودليل أن الكلمة يتحدث عنها

(٢) إن الجر علم الاضافة ، سواء أكانت بحرف أو بغير حرف

(٣) إن الفتحة ليست بعلم على إعراب ، ولكنها الحركة الخفيفة المستحبة ، التى يحب العرب أن يختموا بها كلماتهم ما لم يلفتهم عنها لافت ؛ فهى بمنزلة السكون فى لغتنا الدارجة

(٤) إن علامات الاعراب فى الاسم لا تخرج عن هذا إلا فى بناء أو نوع من الأتباع ، وقد بيناه أيضا .

فهذا جماع أحكام الاعراب ؛ ولقد تتبعت أبواب النحو باباً باباً واعتبرتها بهذا الأصل القريب اليسير ، فصح أمره ، واطرد فيها حكمه .

ثم زدت فى تتبع هذا الأصل ، فتجاوزت حركات الاعراب ، ودوست التنوين على أنه منبىء عن معنى فى الكلام ، فصح لى الحكم واستقام ، وبدلت قواعد ، مالا ينصرف ، ووضعت للباب أصولا أيسر وأنفذ فى العربية مما رسم النحاة للباب . ولا أؤجل عنك إجمال هذه الأصول أيضا .

(١) إن التنوين علم التنكير .

(٢) لك فى كل علم ألا تنونه ، وإنما تلحقه التنوين إذا كان فيه حظ من التنكير

(٣) لا تحرم الصفة التنوين حتى يكون لها حظ من التعريف

والبحث الذى أقدمه إليك الآن ، هو شرح موجز لهذه الفكرة ودرس لها فى أبواب النحو المختلفة ، وبيان لما رأينا من الأدلة لتأييدها

وكنت أريد أن أشكر لصديق الدكتور طه حسين ، وأذكر فضله فى إتمام البحث وإخراج الكتاب ؛ ولكنه آثر أن يقدم الكتاب ، وانزلق إلى الثناء على صاحبه ، فأجررت أن أتكلم .

وحق على أن أشكر تلاميذى الذين عاونونى فى شىء من المباحث ، وإن لم أملك الآن أن أسميهم وأعمالهم .

وأحمد الله حمدا ملؤه التوحيد والتمجيد والشكر

قصة الكفاح بين روما وقرطاجنة

تأليف الأديب توفيق الطويل

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

ما زال الناس يستلهمون التاريخ ويستمدون منه العبرة كلما ألجأتهم ضرورة فى حاضرهم إلى ذلك ، فأن تجربة العصور فى حاضرها لا تغنى الناس إذا شاءوا التماس الحكمة أو استبانة القانون الانسانى ، وذلك أن حوادث السنين لا تتصل نتائجها بمقدماتها إلا بعد مضى القرون ولا تكمل عبرتها إلا بعد توالى الأجيال . وليس فى تكرار التمثل بعبر الزمان إعادة ولا فى تعدد النظرات اليها إباحة لها أو ابتذال ، فان الحادثة الواحدة قد تنطوى على ما لا حد له من العظات ، وقد يتناولها الناس فى كل عصر فيجد كل منهم فيها ناحية من المعنى مخالفة لما وجده سواه من معانيها . ولقد كان النضال بين قرطاجنة وروما أحد هذه المواقف التاريخية الفذة التى هزت العالم هزة قوية فى إبانها ، وما زالت العصور التالية ترجع وتلتفت صوبه ، وكل منها يشير إلى ما يبتغى من عبرة فيه أو يتحدث عنه حديثاً يوحيه إليه موقع الضوء عليه فى ناظره ، وهكذا كان شأن الأستاذ توفيق الطويل ، مؤلف هذا الكتاب عند ما تناول بالبحث هذا النضال

لقد نظر المؤلف الفاضل إلى تلك الحرب التي يسميها التاريخ بالحرب اليونانية كما نظر سواه إليها ووصفها ورسم لنا منها صورة خاصة لا أظن أنها تشابه صورة أخرى رسمها أحد في لغة العروبة

فهو قد استدرج الذهن من موقعة إلى موقعة ومن صورة إلى صورة حتى بلغ به النهاية فأشار اليه مومئاً إلى ما تحت قدميه ، فاذا بالعبرة التي كان يرمي اليها ماثلة واضحة لا يستطيع أحد أن يخالف فيها

ولقد كانت الشعوب الانسانية منذ القدم ينافس بعضها بعضاً في كل ميادين النشاط والمطامع ، فلقد كانت تتنافس في امتلاك الأراضي وفي الانتفاع بالمراعي ، وكانت تتنافس في القوة والمنعة ثم هي تتنافس اليوم في كل هذه المعاني بوسائل سلمية تارة وحربية أخرى . غير أن ذلك التنافس الانساني كانت له مظاهر عدة ، فقد كان يحدث بين وحدات القبائل الصغيرة في دائرة محدودة كما كان يحدث بين الأجناس والشعوب في دوائر أوسع ، فانا لا نكاد نجد عصراً خلا من محاولة شعب من شعوب الأرض سيادة سائر الشعوب ونبوغ شعب آخر يتصدى له بالدفاع ، فاذا بشعوب الأرض موزعة بين الزعيمين المتناضلين حتى ينتهي الأمر باذعان أحدهما أو انقراضه وضياع سلطانه . وقد حاول بعض علماء التاريخ أو الاجتماع أن يخلصوا من استقراء ما حدث من ذلك النضال في كل العصور إلى أن أجناس العالم بينها طائفتان كبريان لا تفتأ تميل إلى النزاع والنضال على سيادة الأرض ، فيسمون طائفة من الطائفتين شرقاً والطائفة الأخرى غرباً ، ويقول هؤلاء العلماء إن النضال بين هاتين الطائفتين دائب مستمر استمرار الليل والنهار فقد يحدث أن شعبين من طائفة واحدة يثوران حيناً للنضال ثم لا يلبثان أن يستقرا على نوع من التفاهم والتجاور ، في حين أن الطائفتين الكبريين لا يستقر بينهما النضال بل لا تزالان تتصاولان وتتصارعان . فأما إحداهما سيدة غالبة ، والأخرى تناضل في سبيل الحياة تجاهها ، وإما أن تنقلب الآية فتصبح السيدة مسودة والمستضعفة سيدة ، وهؤلاء العلماء يجعلون قرطاجنة وروما رمزين لهاتين الطائفتين الكبريين في العصور التي سبقت الميلاد بقرنين أو ثلاثة . كما أنهم يجعلون حرب الفرس واليونان رمزاً لذلك النضال قبل ذلك ، وحرب العرب والروم ثم الفرنج رمزاً له في العصور الوسطى

ومهما يكن من أمر هذا الرأي فانا لا نستطيع أن نغضي عما فيه من الضعف والتعسف ، فالحقيقة التي لا شك فيها هي أن أمم الأرض تتنازع وتتناضل فيما بينها . وأن ما بقي بعد ذلك من التحديد ناشيء من الظروف والحوادث . ولقد كان نضال قرطاجنة وروما بغير شك من أروع مواقف النزاع العالمي ، ولكن لم تكن روما تمثل عند ذلك شيئاً اسمه الغرب ، ولم تكن قرطاجنة تمثل شيئاً اسمه الشرق ، فقد كانت مصر عند ذلك تحت سلطان البطالسة العظام ، وما كانت قرطاجنة إلا مدينة نامية تستولي على المال وتستخدمه في سبيل بسطة سلطانها بأن تسخر الجيوش لتنتصر لها في حروبها ، وما كان لمثل هذه المدينة أن تكون زعيمة الشرق أو الآخذة بزمامه في نضال السيادة العالمية ، بل لقد كانت مصر أجدر منها بذلك وأحرى

ويلوح لي أن المؤلف الفاضل لا يذهب مع أصحاب الرأي المتقدم فأنه وإن علم أن قرطاجنة لها رحم بالساميين لم يجعلها ممثلة الشرق في نزاع الأجناس ، بل نظر نظرة أخرى تختلف كل الاختلاف عن تلك الوجهة التي أشرنا إليها ، فهو لا يتعصب لها ولا يراها تمثل مثلا من أمثلة الشرق العليا ، بل إنه لينظر إلى المثل العليا لرومة على أنها أقرب إلى تمثيل مثل الانسانية عامة ، وهو يتحدث عن حوادث نضال قرطاجنة ورومة حديث من يريد أن يتغلغل دون السطح ليتخذ من بحثه عظة تنفعنا في حاضرنا فهو يريد أن يوجه أنظارنا إلى أن قرطاجنة قد فنيت لأنها كانت جديرة بالفناء ، وأن رومة قد بقيت وتمت لأنها كانت جديرة بالبقاء والنمو ، ثم هو يشير لنا وهو يسير في حديثه إلى الأسرار التي أهلت كلا من المدينتين إلى مصيرها وجعلتها جديرة بما نالها

خلفت الأساطير قصتين عن منشأ المدينتين المتناضلتين ، وما أحرى هاتين الأسطورتين أن تكونا مختصراً لتاريخهما . فرومة تنشأ في العراء وتغذوها الوحوش ثم ترويها الدماء ، ولكنها ترفض الاستكانة إلى الدعة ويطلب أهلها العيش في ظلال المكاره ، فلا تزال مثلها العليا الخشونة والقوة والقسوة . وقرطاجنة تنشأ هرباً من مطامع الطامعين لتنفرد في مأمن تتمتع فيه برغد العيش وذكريات السعادة ، ولكنها لا تلبث أن تحرق نفسها دفاعا لمطامع جديدة اتجهت إليها من ناحية أخرى . وما كان التاريخ ليحدثنا عن المدينتين إلا هكذا إذا شاء اختصار حكاية كل منهما في كلمات قليلة

وإنه لمن ألذ المطالعات أن يتتبع القارىء وصف هذا الكتاب لحوادث تلك الحقبة من الدهر ، فان فيه خصالا ثلاثاً تسمو به . دقة في البحث ، ونفوذ في النظر ، وجمال في الأسلوب

وإني لأنتهز هذه الفرصة لتهنئته تهنئة حارة على ما أصاب من إجادة وتوفيق

محمد فريد أبو حديد

وقع خطأ في البيت الثاني من قصيدة (شباب أم أماني) للدكتور عزام وصوابه :

وللنسيم على أوراقها عبث ينثر الحسن فيه كل مكنون